كيف ستقضي رمضان هذا العام؟

محمد بن سعيد الأندلسي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد على آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فإنّ السؤال المتوجّه إليك في هذه الأيام المباركة: كيف ستقضي رمضان هذا العام؟

هو السؤال الذي ينبغي عليك أن تجيب عنه قبل أن يهجم عليك رمضان على الغفلة التي أنت عليها. هل ستقضيه في النوم والسهر والضياع؟ أم ستقضيه على حالك من الشغل بالدنيا والجَمع لها وتكثيرها؟ أم سيكون شهرًا للسرف في الأكل والملذات، ومشاهدة مخانيث المسلسلات؟ أم ستجدّد العهد بالتوبة والإنابة والعودة إلى الله تبارك وتعالى؟

أخي المسلم: لقد كان المسلمون يستقبلون شهر رمضان بما روي عن أنس، أنّ النبي ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا دخل شهر رجبٍ، قال: «اللهم بارك لنا في رجب وشعبان، وبلّغنا رمضان» [المعجم الأوسط للطبراني: ٣٩٣٩]. وقال عبد العزيز بن مروان: «كان المسلمون يقولون عند حضور شهر رمضان: اللهم قد أظلَّ شهر رمضان، فسلّمه لنا وسلّمنا له، وارزقنا صيامه وقيامه، وارزقنا فيه الجد والاجتهاد والقوة والنشاط، وأعذنا فيه من الفتن...» [الترغيب والترهيب للأصبهاني: ١٧٨٤].

قال يحيى بن كثير: كان من دعائهم: «اللهم سلّمني إلى رمضان، وسلّم لي رمضان، وتسلّمه مني متقبَّلًا» [لطائف المعارف لابن رجب: ص٣٤٩].

لقد كانوا يعلمون فضل رمضان، وسعة فضل الله عليهم فيه، وما ينزل تعالى على عباده من السكينة والرحمات، ويفيض عليهم من الخير والنفحات، ويوسّع عليهم من الأرزاق والخيرات والبركات؛ حيث يفتح لهم أبواب الجنان، ويغلق عنهم أبواب النيران، ويصفّد فيه مرَدة الجانّ. فهو للأمّة ربيعها، وللعبادات خير مواسمها، وللخيرات سوقها؛ فلا شهر أفضل للمؤمن منه، ولا عمل يفضُل من العمل فيه، فهو بحقّ غنيمة للمؤمنين، فهل من مغتنِم؟ روي عن عبد الله بن عباس، أنّ النبي ﷺ ارتقى المنبر فأمَّن ثلاث مرات، ثم قال: «هل تدرون لماذا أمّنتُ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: جاءني جبريل عليه السلام، فأخبرني أنّه من ذُكرتَ عنده يا محمد فلم يصلّ عليك، فدخل النار، فأبعدَه الله وأسحقَه، قل: آمين. قلت: آمين. وقال: من أدرَك والديه أو أحدهما، فلم يبرّهما، فدخل النار، فأبعدَه الله وأسحقَه، قل: آمين. قلت: آمين. ومن أدرَك شهر رمضان، فلم يُغفر له، فدخل النار، فأبعدَه الله. قل: آمين. قلت: آمين» [فضائل رمضان لابن شاهين: ص١٢٨].

ومن العجيب أنّ جبريل عليه السلام، وهو ملك الوحي والرحمة، يقول عن مسلم أدرك شهر رمضان ولم يُغفر له: «فأبعدَه الله»، وإذا عرفتَ السبب بطل العجب. فمن لم يوفَّق للعمل الصالح في هذا الشهر، فهو مبعَد مخذول؛ فالطاعة فيه والقربة مُيسَّرة، ومسالك الشيطان فيه

متعسِّرة، فمن لم تنله الرحمة مع كل ذلك، فمتى تناله إذَن؟ ومن لم يكن أهلًا للمغفرة في هذا الشهر، ففي أي وقت سيكون أهلًا لها؟ كمن حضر موسم ربح فخاب وخسر، فمتى يجني الربح إذن؟ وإذا حُرم ليلةً فيه هي خير من ألف شهر، فماذا يرجو بعدها؟

عن أبي هريرة ﷺ وأرضاه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفّدت الشياطين ومرَدة الجن، وغُلّقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، وفُتّحت أبواب الجنة فلم يُغلَق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أَقبِل، ويا باغي الشر أَقصِر. ولله عُتقاء من النار، وذلك في كل ليلة» [سنن الترمذي: ٦٨٢].

يا من طالت غيبته عن مولاه، قد قرُبت أيام المصالحة.
يا من دامت خسارته، قد أقبلَت أيام التجارة الرابحة.
كم ينادي المنادي: «حي على الفلاح» وأنت خاسر؟! وكم تُدعى إلى الصلاح وأنت على الفساد مثابر؟!

أخي في الله: رمضان على الأبواب، رمضان هدية من رب العباد، تحمل في طيّاتها كل ما يعيدنا إليه ويقرّبنا منه. فماذا عسانا أن نفعل فيه؟ إنها فرصة لا تتكرر إلا مرة في كل عام، وما يدريك أين سيكون حالك ومآلك في العام القادم؟! وأين ستكون؟ «كم ممّن أَمَّلَ أن يصوم هذا الشهر فخانه أمله، فصار قبله إلى ظلمة القبر –رهين عمله–؟! كم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله، ومؤمّلٍ غدًا لا يدركه؟! إنكم لو أبصرتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره» [لطائف المعارف: ص٣٥١].

يَا ذَا الَّذِي مَا كَفَاهُ الذَّنْبُ فِي رَجَبٍ
حَتَّى عَصَى رَبَّهُ فِي شَهْرِ شَعْبَانِ
لَقَدْ أَظَلَّكَ شَهْرُ الصَّوْمِ بَعْدَهُمَا
فَلَا تُصَيِّرْهُ أَيْضًا شَهْرَ عِصْيَانِ
وَاتْلُ الْقُرَانَ وَسَبِّحْ فِيهِ مُجْتَهِدًا
فَإِنَّهُ شَهْرُ تَسْبِيحٍ وَقُرْآنِ
وَاحْمِلْ عَلَى جَسَدٍ تَرْجُو النَّجَاةَ لَهُ
فَسَوْفَ تُضْرَمُ أَجْسَامٌ بِنِيرَانِ
كَمْ كُنْتَ تَعْرِفُ مِمَّنْ صَامَ فِي سَلَفٍ
مِنْ بَيْنِ أَهْلٍ وَجِيرَانٍ وَإِخْوَانِ
أَفْنَاهُمُ المَوْتُ وَاسْتَبْقَاكَ بَعْدَهُمُ
حَيًّا فَمَا أَقْرَبَ القَاصِي مِنَ الدَّانِي
وَمُعْجَبٍ بِثِيَابِ العِيدِ يَقْطَعُهَا
فَأَصْبَحَتْ فِي غَدٍ أَثْوَابَ أَكْفَانِ
حَتَّى مَتَى يَعْمُرُ الإِنْسَانُ مَسْكَنَهُ
مَصِيرُ مَسْكَنِهِ قَبْرٌ لِإِنْسَانِ

أخي في الله: إنّ الناصح لنفسه لا تخرج عنه مواسم الطاعات وأيام القربات عُطلًا؛ لأنّ الأبرار ما نالوا البر إلا بالبر. إنّ الناصح لنفسه يضع نصب عينيه قول النبي ﷺ: «افعلوا الخير دهركم، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله، فإنّ لله نفحاتٌ من رحمته، يُصيب بها من يشاء من عباده...» [المعجم الكبير للطبراني: ٧٢٠]. اللهم أَصِبنا بها يا رب العالمين. وقوله ﷺ: «إنّ لربكم عز وجل في أيام دهركم نفحات، فتعرّضوا لها؛ لعل أحدكم أن تصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبدًا» [المعجم الأوسط: ٢٨٥٦]. فشمّر يا عبد الله، وأحسِن الغنيمة من هذه المنحة، وتعرّض للنفحة، وتسابَق في الخيرات في رمضان. رمضان سيد الشهور، وتاجٌ على مَفرق الأيام والدهور، رمضان ربيعُ التقى وقد فاح فواحه، فمرحى بشهر طيب كريم مبارك، شهر نزول القرآن والكتب السماوية، شهر الشفاعة بالصيام والقرآن، شهر التراويح والتهجد والقيام، شهر التوبة وتكفير الذنوب والعتق من النيران، شهر تصفيد الشياطين وغلق أبواب الجحيم وفتح أبواب الجنان، شهر الجود والإحسان، شهر فيه ليلة القدر، شهر الدعاء والجهاد ومضاعفة الحسنات والصبر والشكر.

بَيْنَ الجَوَانِحِ فِي الأَعْمَاقِ سُكْنَاهُ
فَكَيْفَ أَنْسَى وَمَنْ فِي النَّاسِ يَنْسَاهُ

وَكَيْفَ أَنْسَى حَبِيبًا كُنْتُ مِنْ صِغَرِي
أَسِيرُ حُسْنٍ لَهُ جَلَّتْ مَزَايَاهُ

وَلَمْ أَزَلْ فِي هَوَاهُ مَا نَقَضْتُ لَهُ
عَهْدًا وَلَا مَحَتِ الأَيَّامُ ذِكْرَاهُ

قَدْ شَاخَ جِسْمِي وَلَكِنْ فِي مَحَبَّتِهِ
مَا زَالَ قَلْبِي فَتًى فِي عِشْقِ مَعْنَاهُ

وَفِي كُلِّ عَامٍ لَنَا لُقْيَا مُحَبَّبَةٌ
يَهْتَزُّ كُلُّ كَيَانِي حِينَ أَلْقَاهُ

بِالعَيْنِ وَالقَلْبِ بِالآذَانِ أَرْقُبُهُ
وَكَيْفَ لَا وَأَنَا بِالرُّوحِ أَحْيَاهُ

وَاللَّيْلُ تَحْلُو بِهِ اللُّقْيَا وَإِنْ قَصُرَتْ
سَاعَاتُهَا مَا أُحَيْلَاهَا وَأَحْلَاهُ

فَنُورُهُ يَجْعَلُ اللَّيْلَ البَهِيمَ ضُحًى
فَمَا أَجَلَّ وَمَا أَحْلَى مُحَيَّاهُ

أَلْقَاهُ شَهْرًا وَلَكِنْ فِي نِهَايَتِهِ
يَمْضِي كَطَيْفِ خَيَالٍ قَدْ لَمَحْنَاهُ

فِي مَوْسِمِ الطُّهْرِ فِي رَمَضَانَ الخَيْرَ تَجْمَعُنَا
مَحَبَّةُ اللهِ لَا مَالٌ وَلَا جَاهُ

مِنْ كُلِّ ذِي خَشْيَةٍ للهِ ذِي وَلَعٍ
بِالخَيْرِ تَعْرِفُهُ دَوْمًا بِسِيمَاهُ

قَدْ قَدَّرُوا مَوْسِمَ الخَيْرَاتِ فَاسْتَبَقُوا
وَالإِسْتِبَاقُ هُنَا المَحْمُودُ عُقْبَاهُ

صَامُوهُ قَامُوهُ إِيمَانًا وَمُحْتَسِبًا
أَحْيَوْهُ طَوْعًا وَمَا فِي الخَيْرِ إِكْرَاهُ

وَكُلُّهُمْ بَاتَ بِالقُرْآنِ مُنْدَمِجًا
كَأَنَّهُ الدَّمُ يَسْرِي فِي خَلَايَاهُ

فَالأُذْنُ سَامِعَةٌ وَالعَيْنُ دَامِعَةٌ
وَالرُّوحُ خَاشِعَةٌ وَالقَلْبُ أَوَّاهُ

قال النبي ﷺ: «أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فيُنزل الرحمة، ويحطّ الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإنّ الشقي من حُرم فيه رحمة الله عز وجل» [الترغيب والترهيب للمنذري: ٢/٦٠]. إي والله، إنّ الشقي من حُرم فيه رحمة الله. اللهم لا تحرمنا فيه رحمتك يا رب العالمين.

أخي المسلم: ليس الصوم صوم جماعة الطغام عن الجماع والطعام، إنما الصوم صوم الجوارح عن الآثام، وصمت اللسان عن فضول الكلام، وغض العين عن النظر إلى الحرام، وكف الكف عن أخذ الحطام، ومنع الإقدام عن قبيح الإقدام، قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «إنما الصوم أمانة، فليحفظ أحدكم أمانته» [المغني للعراقي: ص٢٨٠].

فاتّقِ الله يا عبد الله في أمانته عندك، واعلم أنّ الصائم درجات والصوم درجات، قال ابن رجب: «الطبقة الثانية من الصائمين: من يصوم في الدنيا عمّا سوى الله، فيحفظ الرأس وما حوى، ويحفظ البطن وما وعى، ويذكر الموت والبِلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره؛ يوم لقاء ربه، وفرحته برؤيته» [لطائف المعارف: ص٣٧٤].

اللهم بلّغنا رمضان بصحة وعافية، ووفّقنا لصالح الأعمال، وتقبّل منا الصيام والقيام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

